بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الواقع أن حصيلة تطور حياتنا الثقافية ، كانت تدفع باستمرار إلى وجود « أدب الطفل » حيث ساد أدب الكبار طيلة تاريخنا الأدبى العامر بشتى فنون القول ، التى تخاطب الكبار وتتحدث عنهم ، وتصور حياتهم اللاهية والجادة . ولقد كان من مظاهر تطورنا الأدبى المنعطف الذى شهد ميلاد « أدب الطفل » وذلك فيما بعد الخمسينات . والطفل هو فى الحقيقة أبو التجربة الحية ، والخبرة المزودة بالوثوق والاستمرار ... فالطفل الذى يمر بتجربة ويتزود منها بخبرة ،ويتعلم منها قولا أو فعلا أو تعبيرًا جميلا أو شيئا جديدا فى نشاطه ولعبه سوف يقبل على تكرير هذا الأسلوب أو التعبير ، ويسعى إليه كلما توافرت له فرص ممارسته ، ولقى منا تشجيعا واستحسانا .. وهكذا نستطيع مع أطفالنا أن نزودهم بكل ما هو جميل من قول أو فعل وندفعهم إلى ما يستجد من مواقف الحياة ، ليكونوا مزودين بما نرضى عنه من أقوال وتعبيرات وخبرات سابقة ، وما كسبنا من اتجاهات ومهارات وقدرة على تناول هذه المواقف . وعلى ذلك فإن كل خبرة نحياها مع أطفالنا ، أو ننفعل بها لهم ، فإنها تتحول لديهم إلى مخرون يلبى احتياجاتهم ، مع المواقف والحياة ، ويعيش معهم فيما يستجد من خبرات . ولعل فيما أسلفت ما يوضح حقيقة أهمية مرحلة الطفولة لغناها وتأثيرها ... ومن ثم أهمية أن يكون هناك أدب يصور الطفولة ويتجاوب مع مشكلاتها ، ويعبر عن خصوصياتهم ، ويكشف عن قواها الإبداعية ، وقدراتها الخلاقة ، ويتطور هذا الأدب مع مراحل حياة الطفل من المهد إلى عتبات الشباب ، ويقدم المتعة اللغوية والفكرية والتصويرية بمستويات التعبير المختلفة من شعر وأناشيد وقصص ومسرحيات . وأعظم ما فى فن القول من جمال لفظى وشرف معنوى هو ما يوفره الأدب الإلهى والنبوى من نماذج أدبية رفيعة المستوى شكلا ومضمونا ... . والمرحلة التى نمر بها من مراحل نظرتنا إلى بناء المجتمع المصرى والعربى ، وإلى جانب هام من جوانب ثقافتنا وهى تنبع من خبراتنا وتجاربنا وتراثنا ، وتنمو فى اتجاه المستقبل ، تتطلب حماية أطفالنا من المؤثرات غير المرغوب فيها ، التى قد يتعرضون لها نتيجة اتصالهم

بألوان أدبية تستثير فيهم نوازع البطولة الفجة ، والانفعال المخرب ، والغرائز المحرقة ، وذلك خلال ما تعرضه بعض الكتب المستوردة ، والبرامج الإذاعية المشبوهة ، والمجلات المحسوبة على فكرنا وثقافتنا ، أو من مشاهد « الإذاعة المرئية ، والخيالية » .

وما من شك فى أن ذلك يحتاج منا إفاقة تعبيرية فنية ، تباعد بين أطفالنا وبين ما هو مطروح فى بعض المكتبات ، وبعض مدارس اللغات ، بقصد أو دونه ، وما يعرض « بالسينما » و« التلفزيون » و« الإذاعة » بغرض الكسب التجارى وحده ، كما أننا مطالبون تجاه مستقبلنا وواقع مرحلتنا التى تشهد إحياء للنص الأدبى الرفيع فى سياق « أدب الطفل » أن ندرأ عنهم خطر إرضاء أذواقهم وميولهم ونزعاتهم باهدايا والمسليات والمشوقات الفاسدة ، التى تعمل ضمن إطار سياق الزمن على تقويض دعائمنا وتهديم بنائنا الحضارية والثقافية ... بل نقدم لهم الأدب الذى يتفق ومراحل نموهم ويرسخ فيهم المعتقدات الإيجابية وما يكون موظفا فى خلق ودعم الشخصية الاعتبارية والثقافية والفكرية والتاريخية لأمتنا وقوميتنا وإنسانيتنا الحقة ... . كما يجب ألا نجعل لأدب الكبار سيطرة كاملة فى إطار التأثير العام على الأطفال وغيرهم ؛ لأن تعامل الطفل وبناء ذوقه مع أدب الكبار يحول دون إنضاجه وإمتاعه وتكوين شخصيته ، كما يؤثر بالسلب على الطفل تأثيرا أدناه إلغاء طفولته ، والقفز به – وجدانيا وعاطفيا – مرة واحدة إلى عالم الكبار ، وفى هذا خطر كبير على المجتمع ، وعملياته التعليمية وتعدد مستويات ما يقدم له من ألوان الأدب ؛ لذلك كان على الأدباء والمبدعين أن تكون لديهم ثقافة عن الطفولة ، ويمتلكوا الخبرة والتجربة المعيشة مع عالم الطفولة ، حتى يستطيعوا أن يقدموا المستوى المطلوب المتجاوب مع خصوصية المرحلة الذهنية والوجدانية والزمنية للطفل ، وأن يتعرفوا خصوصية علاقة الطفل بالمكان الذى فيه تتكون مدركات الطفل الحسية والعقلية ويبدأ من المكان فى تكوين العلاقات التى سوف تشكل منه شيئا ما فى المستقبل .

هذا ... ومن المحال أن نراقب هذه الجهات أو تلك المصادر المشكوك فى نواياها تجاه أطفالنا ، باعتبار الطفولة البنية الأساسية فى نهضة الأمم والشعوب .. وإننا على المستوى الوطنى أو القومى أو الدينى مستهدفون من الصهيونية والاستعمار الفكرى والثقافى والاقتصادى الذى لا تحكمه أى من مبادئ الأديان ، وتغلب عليه مصالحه الأنانية الضيقة مهما رفع من شعارات براقة ، لا تلبث أن تنكشف حقيقتها لكل ذى بصيرة ، أى أننا لا نستطيع مقاومة هذا كله ضد بنيتنا الأساسية المتمثلة فى طفولتنا التى هى الجنين الواعد فى رحم الحاضر المهترئ ، إلا بتقديم أدب للطفل ، يتغذى من تراثنا وإبداعنا

الأصيل وأدبنا لشعبى المغمور بالنقاء والصفاء والخيال الأبيض الجميل ، ومن الأساطير الإنسانية التى تتغذى على خبرة وتجارب الإنسان التلقائى العفوى عبر العصور ... ومن الأدب الإلهى والنبوى الذى يؤكد فى أطفالنا الإيمان والمعرفة الصحيحة والارتباط بالله خالقا للكون ، وداعيا إلى المحبة والتسامح والعمل والعلم ، والرحمة والعدل والإخاء والمساواة . أى الأدب الصادق الآمن الصادر عن مواهب مخلصة لله وللأمة وللوطن وللإنسانية ، ويتجاوز كونه حماية للطفل إلى كونه مدرسة تعمل على تطوير طفولتنا فى اتجاه الإيجابيات التى نحلم بتحقيقها ، وإنضاج عقل الطفل ، بما يسمح بأن نعده عقلا مبتكرا متوهجا بالخلق والإبداع ، وتكوين شخصيته السوية بما يجعله مواطنا صالحا وحاكما أصلح ، لا تحكمه العقد والأمراض التى تحوله إلى ديكتاتور . ومن ثم يُخْلَق طفلٌ يكون الابن الشرعى الحقيقى الصالح لحياتنا المستقبلية . نحن – من أجل أطفالنا – نرفض الأدب الموجه مثل : « أدب السوبرمان » و« أدب المغامرة العدوانية » .

وسلاسل « الرسائل الغامضة » ، « والاختطاف » « وأدب الجريمة » و « الأدب البوليسى » . . وتركيز الوصف أو التلقى أو المشاهدة على سلوكيات هؤلاء الأبطال ، وفى طريقة حملهم للسلاح ، وركوب الخيل ، كما فى وضع السيجارة بطريقة لافتة ، وأسلوب تدخينها – كل هذا ينعكس على أطفالنا فيكون عندهم عادات العدوانية على المجتمع ، وعلى الحياة من حولهم ، لهذا كله نصبح مطالبين بدعم « أدب الطفل » بعناصر إبداعية إيجابية ، ومدعوين – أيضا – لتبنى أدب للأطفال يقوم على خصائص الطفولة ، وخصوصيات المكان والبيئة والتاريخ والوطن والأمة والإنسانية جمعاء ، حتى نستطيع أن نربى مجتمعا ، ونملك بهذا الأدب أن نساعد ملايين الزهور والورود على التفتح : والآمال تغمرنا حينما نفكر فى كتاب « أدب الأطفال » ليكون حاملاً للغة الخطاب الذى نتوجه به نحو عالم الطفولة وذلك فى شكله ومضمونه ، فنطالب القائمين على أمر الكتاب المدرسى ، ليسموا به فيكون صورة لما يجب أن يكون عليه كتاب « عام الطفل » فى شكله ، حيث الأناقة والجماليات المناسبة ، وفى مضمونه حيث قص لمنهج ومسرحته وحتى يكون هناك مزج حقيقى بين ما يقدم من أجل المتعة وما يقدم من أجل المعرفة ، سواء أكان هذا على المستوى الفنى لإخراج وطباعة الكتاب ، أو على المستوى الإبداعى والثقافى والعلمى . بما يحقق لنا كتابا واحدا يشكل المرجع والمصدر الذى يستقى منه الصغار معلوماتهم ومتعتهم وجماليات لغتهم وفنونهم التشكيلية والقولية .

إن ما يتميز به عالم الطفل من خصوصيات ، يجعلنا نعيد النظر ، ونديم التفكير ، فيما يجب علينا تقديمه لهذا العالم من فنون أدبية ، وبخاصة القصص والمسرحيات ... . حيث تقوم بدور مؤثر فى عملية التطبيع الاجتماعى والبيئى وفى تكوين شخصية الطفل ، وذلك لما فى هذه الفنون القولية والتشكيلية بعامة ، والقصص والمسرحيات بخاصة من عناصر ومقومات تتحاور مع الجوانب الانفعالية والنفسية المناسبة ، وتتفاعل مع العواطف والوجدانيات بدرجة تفوق وسائل التواصل الفنية الأخرى ، وهى بهذا قادرة على التأثير فى شخصية الطفل ووجدانه وعقله .

والأمر الذى أحب أن ألفت النظر إليه .. هو أن قصصًا شعبيًا وأسطوريا أصبح يمثل تراثا لاغنى عنه لعالم الطفل ، مثل قصة « سندريللا » الطفلة الصغيرة الجميلة التى يلعب الحظ ، وتلعب الخرافة دورًا إيجابيًا في انتصارها النهائى . . . ورغم ما فى أمثال هذه القصة من جوانب فنية ممتعة إلا أن الموقف السلبى لمعظم بطلات وأبطال هذا الأدب الخرافى الأسطورى ، والحلول الفيزيقية التى تنتهى إليها غالبا هذه المجموعة الخيالية ، يجعلنا نعيد قراءة هذه الألوان ونضيف إليها أشكالا . ونعدل - أحيانا - من الأصل ، حتى نستطيع تقديم ألوان تتميز بإيجابية الفعل الإنسانى ، وبتفاؤله مع حركة الحياة ، كما تدعم اتجاهات العمل الإيجابى التى ننشدها فى أطفالنا ، وتأكيدا على تنمية حركة الإبداع الموصولة بإيجابيات البشر ينبغى إعادة النظر - أيضا - إلى قصص « السوبرمان » و« رعاة البقر » والبطولات الفردية المطلقة .

وبعد ، فإنه نداء جهير إلى كل المبدعين الذين يحبون وطنهم ويذوبون شوقا إلى الوطن الكبير الحر المنتصر المتقدم على درب الخير والحق والرفاهية للجميع ، الخالى من الظالمين ، والملتصقين والمتسللين ، والمتسلقين ، والديكتاتوريين والراكعين والمنافقين ، والمتشردين ، والمترددين والمتشوهين فى أرواحهم وعقولهم وشخصياتهم ... أن يسعوا من الآن إلى تكامل البنى النفسية والروحية والعقلية لأطفالنا ، وذلك بالكتابة الأدبية لهم وعنهم ، وفى سبيل جيل جديد يبنى بلادنا من جديد ... فلتكتبوا للأطفال ، ولتقصف كل الأقلام التى تنافق ، ولنتوجه جميعا إلى أطفالنا ، فهم آخر معاقلنا وآخر خندق نحارب منه تخلفنا ، وندفع منه المهانة عن أكفنا التى دميت من كثرة التصفيق ، وحناجرنا التى بحت من جهارة الهتاف ، فالكتابة للأطفال شرف ، والغناء لهم حداء نحو الأفضل والأجمل .

ولتكن إعادة الصياغة الاجتماعية والسياسية والثقافية والفنية صياغة متحررة من النفاق والازدواجية ، حتى ننال شرف ثقة أبنائنا وأطفالنا فينا ، وفى جيلنا .. ومن ثم فى

مستقبلنا ومستقبلهم .. وليكن الجهد المخلص لأطفالنا مساويا للجهد المبذول للأطفال العرب بعامة وأطفال فلسطين بخاصة ... . فنحن جميعا نعيش النكبة والمأساة .. إن بلادنا وأمتنا ودينا وشخصيتنا قد استعرناها من أجدادنا قوية منيعة متحررة ، عزيزة منتصرة ... فلماذا نسلمها لأولادنا ، وأحفادنا ، منقوصة مكبة بالتبعية والقيود ؟ فلتكن الكتابة الحرة أولى خطانا نحو تسليم الأمانة عزيزة كريمة غير منقوصة ، إن الحاضر يحثنا ... فلماذا لا نغتنمها فرصة ، لتشهق أقلامنا بكلمات حرة جميلة عادلة متأبية على غير ما ينبغى أن يكون ؟ !

إن العلاقة بين الطفل ، وجماعته ، أحد أهم المحاور التى ينبغى على « أدب الطفل » ، أن ينميها من حيث التركيز الكامل على هوية أطفالنا ، وانتماءاتهم الوطنية ، والقومية ، وثقافتهم ، وقيم أمتهم ، وتقاليد جماعتهم ، والتأكيد – أيضا – على أن غربة الإنسان تتحقق عندما يتخلى عن هذه القيم ، وحينئذ يتحول مع جماعته إلى واقع إنسانى هش الإرادة ، مهزوم العقيدة ، ضعيف الكيان ، وذلك فى مواجهة نظام عالمى ، لن يقبل بوجود جماعة لا تتنازل عن كينونتها فى مقابل قبولها كأحد عناصره البشرية فحسب .. بل إنه غالبا سيكون على استعداد للدخول معنا فى صراعات مريرة حتى يسلبنا كينونتنا ، وثقافتنا ، وقيمنا الاجتماعية ، حتى نكون مهيئين للابتزاز ، والتذويب ، وستكون طفولتنا أهم ميادين هذا الصراع . فعلينا بأبنائنا ، وأطفالنا ، وليكن « أدب الطفل » جزءا أساسيا من مكونات ثقافتنا الروحية ..

عبد الرءوف أبو السعد